الجنتلمان !

قصة مصرية

بقلم : محمود تيمور بك

كنتُ وصديقي « عزّوز » إذا طالت جلستنا في القهوة ورغبنا في تناول العشاء قصدنا مطعم « فورفاتلّي » بشارع عدلي ... نفضّلهُ على سائر المطاعم — بالرغم من صغره وتواضعه — لعنايته بإعداد بعض الألوان الإيطالية الأصيلة

وأعلن السنيور فورفاتلّي أنهُ سيحدث انقلاباً في مطعمه يتناول كلّ شيء فيه بالتجديد . وذهبنا يوم الاحتفال بافتتاح المطعم في مظهره الحديث فلم نرَ إلاّ تغييراً يسيراً سطحيًّا ، إذا استثنيتُ امراً واحداً جديراً بالملاحظة ، ذلك بأن السنيور فورفاتلّي رأى ان ينصب على مقربة من باب المطعم دمية من ورق مقوّى تمثّل سيّداً أنيقاً يحمل في يده قائمة الطعام ، وكانوا يسلطون على هذه الدمية نوراً كهربيًّا تبدو به بهيجةً تستوقف الانظار !

ووقفت أتأمل هذه الدمية فلم ترقني ديثما على ماامتازت به من اتقان في الصنعة ومثّل السنيور فورفاتلّي عن كثب منا يحدثنا في شأنها مسهباً ، ويكشف لنا عن مواطن الإتقان والبراعة فيها ويثني على صانعها الفنان أطيب الثناء

كانت هذه الدمية تمثل شخصية السيد المتظرف الانيق « رجل الصالون العصريّ » وأنيس كل حفلة شائقة . ومن منا يجهل هذا الزهوّ المتحذلق وهو يخطر في لبوس الحافل الرسمي ووجههُ الأمرد مستنيرٌ بشبه ابتسامة يختلط فيها الترحيب بالكبرياء . وهذا « المونوكل » المثبت على حُقّ عينه بمهارة خليقة بالإعجاب ، وهذه الشملة السوداء ذات البطانة الحريرية البيضاء يبسطها على كتفيهِ في تأنقٍ مصحوب بإهمال مقصود . واخيراً هذه اليد المكسوة بالقفّاز الابيض آخذة بعصاً مفضضة المقبض متلاعبة بها . لبثت أتأمل الدمية وقتاً وقد شغلتني

شخصيتها عن قائمة الطعام اللذيذة في يدها اليسرى ، ولكن السنيوره فوروناتلي » نبّهني إلى أن عشاء الليلة يحوي غير « الاسبجتي النابوليتانية » صحناً من « الرافيول » الفاخر . ثم تركت ليستقبل بعض روّاد مطعمه . ومِلتُ على صديقي عزّوز أقول وأنا أشير الى الدمية :

ما رأيك في هذا الصديق الجديد ؟!

— لقد أتى به السنيور فوروناتلي ليستقبل ضيوف المطعم ... ألا ترى يده التي تحمل القائمة مشيرة الى الباب ترشدنا اليه وترحب ؟!

— انها طريقة جديدة في تكريم الزوّار كأنّي اسمعه يقول لنا وهو يدعونا الى الدخول : تفضلوا يا سادة ، وبالسمّ الهاري ... !

وتبادلنا الضحكات ودخلنا ..

***

كنت كلما ذهبت الى مطعم فوروناتلي ، لقيني وجه ذلك « الجنتلمان » المتطرس بابتسامته الكاسفة ، فيرشق كلّ منا صاحبه بنظرة عجلى ، نظرة يتجلى فيها الاحتقار والزراية ، وما هي الاّ ان أحوّل طرفي عنهُ وأنا أحثُّ خطاي نحو الباب

وجلست مع صديقي عزوز على مائدتنا المختارة في المطعم نتذوّق حساء « الميندسترون » اللذيذ . وبغتةً رفعت رأسي وقلت :

لو كنت حاكماً بأمره لقضيت على هذه الفئة المشؤوم ...

فقال عزوز وهو منهمك يأكل :

أي فئة تعني ؟

— فئة هؤلاء الجنتلمن المزيفين ... هؤلاء السادة المتعطلون ... هاته الدمى التي تخفي تحت مظهرها الرشيق رؤوساً خاوية لايمكنها إلاّ الصلف والازدراء بالناس ...

فأجابني عزوز وهو ما زال منكبا على حسائه :

لا تنس من هذه الفئة في زينة حياتنا الاجتماعية العصرية ... ! !

وأقبل علينا السنيور فورناتلي يستطلع رأينا في حساء « الميندترون » وقبل ان نجيبه بكلمة انطلق لسانه بحديث كأنه السيل الجارف يصف محاسن هذا الحساء وجودة طهيه ...

***

وصادفت عزوز مساء أحد الأيام في القهوة فبادرني بقوله :

سنذهب الليلة حتماً الى مطعم فورناتلي .

فقلت له وأنا أخلع طربوشي وأمسح وجهي

ولم ؟

— لقد مررت به وأنا في طريقي الى هنا ، فاستقبلني «صديقك الجنتلمان» وقرأت في قائمة الطعام التي يحملها في يده ان عشاء اليوم يحوي لوناً من « اللازانيا »

— اللازانيا ... إنها لذيذة ... !

— لذيذة جداً ...

— ولكن ...

— ولكن ماذا ... ؟

— ليس لي رغبة في الذهاب ... !

— كيف ... ألست جائعاً ؟ !

— جائع ... ولكنني ... ولكنني أفضل أكلة طريفة من الطعمية والفول ...

— لقد سقم ذوقك بلا ريب ، أتفضل الطعمية والفول على اللازانيا .. ؟ !

— وماذا في ذلك ؟ !

أتذكر أنك كثيراً ما طلبت من السنيور فورناتلي هذا اللون من الطعام

— هذا صحيح ... ولكني لا أحس الليلة رغبة في تناوله ...

وأصررت على رأيي فلم أرافقه

***

وقلَّ اختلافي الى المطعم «فورفاتلي»، فكان صديقي عزُّوز يعجب من انصرافي عنهُ، وزهدي فيهِ، ويسائلني في ذلك، فأزعم له ان المطعم — منذ تجديده — قد فقد طابَعهُ القديم، وفقد مع هذا الطابع ميزتهُ في جودة الطهي وإرضاء روّاده، فكان عزُّوز يحتجُّ على هذا بقوله:

إني أرى المطعم — على عكس ما تقول — يزداد اتقاناً لالوانه، وكذلك استطارت شهرته

وخرجت مرّة من المطعم، وبينما كنت مارّاً عن كثب بالجنتلمان إذ عثرت قدمي وكدت أسقط على الرصيف سقطة لا تخلو من خطر لولا ان أدركني عزُّوز فاعتدلت في وقفتي وأنا أصلح من شأني، ووقع بصري على «الجنتلمان» وهو ماثل في وقفتهِ الأرستقراطية المتحذلقة، فإذا هو منطلق الوجه في بِشر وانتصار وراعتني منه ابتسامة لم ألمحها على ثغره في هذا المظهر الساخر قبل الآن. وخيّل اليّ ان شفتيهِ تتحركان بِهمهمة: ما أشدّ غباوتك من رجل غفل. وشملني اعتقاد راسخ بأن هذا «الجنتلمان» كان سبب سقطتي... أتكون قدمهُ اليمنى في حذائها اللامع الأنيق قد امتدت في طريقي فأعثرتني. او تكون تلك العصا المعقوفة ذات المقبض المفضض قد استطالت واعترضت قدميّ... ودنوت منهُ وقد رفعت يدي لأهوي بها على صدغهِ المصعَّر... ولكنّي وجدتني انتزع قائمة الطعام من يده وأهال عليها أمزّقها شرَّ ممزق...!!

منذ ذلك الحادث لم تطأ قدمي مطعم «فورفاتلي» وقابلت «عزُّوز» يوماً فحمل اليَّ خبراً خطيراً. ذلك ان السنيور «فورفاتلي» أفلس، فلقد كان ممن يضاربون في السوق المالية، فأصابتهُ نكبة رازحة، فاضطر أن يُغلق مطعمهُ، ورأيتني أفاجئ صديقي بقولي:

والجنتلمان؟

إن مصابي في المطعم أكبر من أن يجعلني أهتمُّ بهذه الدمية..

— ولكنك تعلم على الاقل ما حلّ بمتاع السنيور فورفاتلّي .. ؟

— علمت أن كلّ ما يتعلّق في المطعم قد بيع بالمزايدة ..

ولم أطل معه الحديث في هذا الشأن ، وفي اليوم التالي قصدت الى المكان الذي كان يشغله المطعم ، وطفقتُ أسأل البوّابين والجيران عمن اشترى « الجنتلمان » فلم أحظ بجواب ...

وتركت المكان وأنا مغيظ ...

***

وتوالت الايام ، وبينما كنتُ مارّاً في حارة « جامع البنات » أمام حانوت « كوهين الورّاق » إذ رأيت قصبي وجهاً لوجه أمام « الجنتلمان » فبُهِتُّ ، وأحسستُ لحظةً حيرةً وارتباكاً ، ولكن سرعان ما تزايل ذلك عني وألقيتُ بنظرة متفحّصةٍ عليه فوجدته يحمل في يده اليسرى لوحاً من الورق المقوّى مثبتة فيه بطاقات زيارة في أشكال مختلفة وخطوط شتى . وكان كعهدي به يرتدي لبوس السهرة وعلى كتفيه تلك الشملة الثمينة ملقاة في إهمال مقصود ومازال قابضاً بيده اليمنى على عصاه الثمينة ذات القبض المفضّض . كان هو هو ذلك الجنتلمان الارستقراطيُّ عريض الصالون العصري ... ولكنّ شيئاً واحداً لحظتهُ لم أعهدهُ فيه من قبل ، شيئاً راعني وأشعرني بإحساسٍ غريب ، و تلك النظرة التي يرنو بها للناس . لقد تضاءلت لمعتها الوهاجة المنطوية على الزهو والصلف . أما وجهه فقد شاع فيه النحول والسقم واكتسى بطابع الأسى . وخيّل اليّ وأنا أتفحصهُ انهُ كان يزيغ ببصره عني ليتجنب مواجهتي . وكأنهُ يتململ في وقفتهِ ضجراً ... فابتسمتُ وقد انكببتُ على بطاقاته أتفرج وأنا أهمهم : يا للحظ العاثر من مطعم فورفاتلّي الفاخر في شارع عدلي الى ورّاق صغير في حارة جامع البنات » ... !

وداعبتُ بعصاي عصاه فشعرتُ بها تهتزُّ في يده على وشك ان تتحطم فتركتهُ ومضيت في طريقي ...

لا أدري ما الذي دفعني الى ان أكثر ترددي على حانوت « كوهين » الوراق ، فأجعله مكاناً مختاراً أقضي فيه بعض الأصائل . لعله ذلك الجوُّ القديم

الذي يشمل حارة « جامع البنات » وملحقاتها حيث يطيب للمرء أن يستعيد ذكريات الماضي الحبيبة . . . أو لعلهُ شيء آخر لم أستبنهُ . وعلى أية حال فاني لا أنكر أنهُ كانت تحلو لي جلستي على المقعد الخشبي الخشن أمام الحانوت أرشف القهوة وأدخن على مهل، وغير بعيد عني صاحبنا « الجنتلمان » في وقفته التي لا تتغير يحمل على مضض وكرهٍ منهُ لوح البطاقات يعرضهُ على المارين . وكنت أمضي وقتي صامتاً أراقب دخان لفافتي ثم أتراخى في جلستي وأطبق جفني حالماً فأحسُّ أن «الجنتلمان» يهمس مهمهماً بألفاظ لا أتبينها . ثم يتوضح رويداً حديثهُ فأرهف لهُ السمع فاذا به يروي نبذاً من تاريخ حياته — قصصاً جديرة بالتسجيل يصف بها مغامراته الغرامية وصوراً طريفة من حياة الصالون ومراسيه لا تخلو من مبالغات وأكاذيب كان يرويها لبقاً في صوت المتأمر المزهو . ولكن كثيراً ما يخونهُ صوتهُ فيضعف متزايلاً في لهجة أشبه بلهجة الاسترحام واذا بوجهه يزداد شحوباً وقامته تتقوّس و« التوكل » يهوي عن عينه ورأسه يميل على صدره وقد غمره صمت شامل . . . فأصحو مرتاعاً . ولا أكاد ألتفت اليه وتتلاقى عيونتا حتى أحسّ رجفة تسري في جسدي فأقوم ألتمس الطريق في العتمة المقبلة

***

وكنا في مستهل الصيف فتهيأ لي الرحيل الى رأس البر وأقمت فيه نحو شهر ولما عدت قصدت الى دكان الوراق فلم أرَ صاحبي « الجنتلمان » في مكانه المألوف فسألت «كرمين» عنه فأخبرني وهو لم يغادر مقعده أمام مكتبه وأنفه المقوّس الطويل يعبث في دفتر الحساب وقال :

لقد ضقنا ذرعاً به . طالما شكا المارة منه زاعمين أنهُ يشغل حيزاً كبيراً في الحارة فيعوقهم في الغدوّ والرواح

— وماذا صنعتم به . . . ؟

— بعناه . . .

— لمن ؟

— لشخص لا أعرفه … رضي أن يدفع لي مبلغاً حسناً ثمناً له

فتركت الحانوت على الأثر وأنا ضيق الصدر وقد تمثلت أمامي صورة ذلك السيد الارستقراطي الأنيق وهو واقف في سوق الرقيق تتناقله الأيدي كمتاع غث رخيص وقد ستر وجهه بطرف شملته ليخفي نفسه عن أعين الشامتين … في حارة « جامع البنات » …

وانقضت بضعة أشهر كدت أنسى فيها حوادث صاحبي « الجنتلمان » وبينما كنت أمرّ بحارة « بين الصورين » في « الموسكي » إذ شعرت أن يداً تأخذ بطرف سترتي ، فالتفت فلم أر إلا كومة من الملابس البالية موضوعة على شبه مشجب أمام حانوت من حوانيت بيع المتاع القديم ، فلم أعن بالأمر ، واعتزمت مواصلة سيري ، غير أنه استرعى نظري على حين بغتة شيء يشبه اليد في قفاز أبيض قذر قد ظهرت من بين الملابس ، وتصور لي أنها كانت تضطرب ، كأنها تستوقفني ، فعدت أدراجي وقلبي يدق ، ومضيت على الفور أرفع كومة الملابس عن المشجب فبان لي رويداً صديق « الجنتلمان » . يالله ما أشدّ شحوبه ، وما أكثر تجاعيد وجهه ورأيته كأنه يتنفس الصعداء ويحاول أن يرفع قامته المقوسة التي حناها وأذلها وقر تلك الملابس القديمة … وقفت أتأمله في حسرة وحيرة لا أجد من نفسي الشجاعة على الدنو منه . لقد كان كل شيء فيه ينطق بالبؤس والفاقة . شملة ممزقة ، وكسوة قذرة دانت فيها يد التخريب … . وعصاه الثمينة لم يبق منها غير مقبضها الفضي الحائل حرص على أن يبقيه في يده ذكرى لحياة العز والسؤدد … . « والمتوكل » ؟ لم أر له أثراً … ولكن كل ذلك لم يعد شيئاً مذكوراً اذا وازناه بما دهم عينيه … ياللقدر القاسي . لقد أصبحتا مثقوبتين فهل فقد حاسة الإبصار ؟ … وأخيراً وجدتني أدنو منه مخاطبة ثم أطبقت يدي على يده وطفقت أهزها في حنو وإخلاص فأحسست شفتيه تختلجان بابتسامة مكتئبة وكأن جفنيه قد انطبقا وتحدرت منهما قطرتان لامعتان …

وفي لحظة ألفيته ينهار أمامي ويصبح كومة من الأنقاض !!

انتهى